اولية الشعر العربي وصعوبة تتبع المنبع بين القدماء والمحدثين:

تشترك جميع الآداب العالمية ببساطة البدايات ، وليس الادب العربي بمختلف عنها، وبالنسبة للعرب التي كان الشعر ديوانها وارثها الحضاري الخالد فان البدايات لهذا الشعر ظلت غامضة بسبب عدم تدوين تلك الاشعار وانتقالها شفاها بين الرواية والاخباريين، ولغاية عصر التدوين في نهاية القرن الثاني الهجري لم يكن قد وصل مما بقي منه في صدور الرواة والحفظة الا القليل مما كان موجودا منه، بدليل مقولة ابي عمرو بن العلاء المشهورة: "ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا اقله ولو جاءكم لجاءكم علم وشعر كثير" الخصائص / ٣٨١

وفي قيمة الشعر وكونه ابرز ما خلفته العرب واستأثرت به روى الجاحظ في كتاب الحيوان عن الهيثم وابن الكلبي وأبي عبيدة، "أن كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وهو ديوانها ... قال: ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان وكعبة نجران إلخ."

ومن مقولة ابي عمرو بن العلاء ورأي الجاحظ يتأكد لنا ان الشعر كان علم العرب ووانه قد ضاع منه الكثير مما لم يدرك رواته عصر التدوين، وقد حظي موضوع اولية الشعر العربي وقدمه بعناية الباحثين العرب والمستشرقين وعرضوا الآراء والترجيحات والادلة المعززة بالشواهد التاريخية ، وبحكم الطبيعة الشفاهية للأدب العربي القديم وعدم تدوينه هناك نظريات تفترض بدايات مختلفة تبعا لمنطلقاتها النظرية، واشهرها تلك التي تربط الشعر بالغناء يقول د. سعد اسماعيل شلبي:"ونشأت القافية هذه النشأة وارتبطت بالغناء والتزمت في آخر الابيات تمشيا مع الغناء لأنها قوية الشبه بوقفات المغنين ونهايات العزفين وسكنات الناقرين على الدف ،،، والموقعين بأرجلهم في الرقص في نهاية النفس في البيت واستراحة من البيت الى البيت ولأنها مضافة الى الوزن تكسب الشعر رنينا وتزيده موسيقا.....ولا شك في أن صور الاوزان التي يمتاز بها الشعر الجاهلي انما حدثت بتأثير الغناء وقد نفذوا منه الى ضروب من التجزئة في بعض الاوزان كمجزوء الكامل "الأصول الفنية في الشعر الجاهلي/١١٥

وهي نفسها النظرية التي ربطت الشعر بالحداء وهو الغناء للابل وهو احد الانواع الثلاثة للغناء الذي شاع عندهم، يقول نقلا عن الاغاني: وشاع ارتباط الشعر بالغناء وتنوعت احوالهم وتنوعت اغانيهم فكان منها ثلاثة اوجه، النصب والسناد والهزج، اما النصب فغناء الركبان والفتيان ويقال له المرائي وهو الغناء الجنابي اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله، والسناد وهو الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، والهزج الذي يطرب عليه فيهيج الانفس ويستخف الحلوم،الاصول الفنية/ ١١٠ نقلا عن الاغاني٥١/٥ وذكروا ممن غنى بشعره الاعشى والسليك بن سلكة والمهلهل ومزرد بن ضرار الذبياني.بل ان نساء العرب كن يغنين الصلاة لأصنامهم ومنها دوار الذي ذكره امرؤ القيس في شعره(عذارى دوار في ملاء مذيل)

وبالعودة الى النصب المنسوب الى جناب بن عبد الله نجد في اخبار الشاعر زهير بن جناب الكلبي وهو احد المعمرين ذكرا لخبر هذا النوع المنسوب الى ابيه ، وزهير هذا عاش ما لا يقل عن ١٧٩ سنة وتوفي على الارجح في سنة ٦٠ قبل الهجرة – علما ان هناك روايات ترجح انه تجاوز ال ٣٠٠ سنة)- الديوان تحقيق محمد شفيق بيطار ص٢٢-

ما يدفعنا الى تقبل نظرية ربط الشعر بالغناء .

وتتناثر في كتب الادب والانساب والاخبار ابيات كثيرة لشعراء مجهولين وآخرين لم يرد لهم ذكر او شعر كثير نرجح ضياعه كما يرجح الكثير من الباحثين، وكان من نتاج هذا الضياع ان ضاعت الحقيقة في أولية الشعر وفي اي قبيلة ظهر، وانهم كانوا لا يعتدون بالبيت والبيتين والثلاثة في الاعتراف بشاعرية الرجل بل كان مقياسهم الكثرة وطول القصائد ومع ذلك كان من الصعب حتى على الجاهليين انفسهم تحديد بدايات دقيقة للشعر، ومن المعقول ان هذا الشعر قد مر بمراحل واطوار اخرجته الى الصورة التي كان عليها ، ومما جاء في اشعار كبار الشعراء الجاهليين من اشارات الى سابقيهم دليل على ذلك، فابن خذام المذكور عند أمرئ القيس وقول عنترة- هل غادر الشعراء من متردم- تدل دلالة واضحة على الغموض الذي يكتنف تلك البدايات ، يذكر احد الباحثين قول دي فرجيه:"ان اصول هذا الادب قد هربت منا لسوء الحظ فهو حين يطلع علينا لأول وهلة يطلع من قلب الصحراء تام الخلقة"دراسات في الشعر العربي القديم/١٣، وقلما يتناول دارس ما موضوع الاولية ولا يعرج الى رأي ابن قتيبة في بدايات هذا الشعر في قوله: ولم يكن لأوائل الشعراء الا الابيات يقولها الرجل عند حدوث الحاجة، وهي التي وردت على شكل مقطعات ثم اصبحت القصيدة المطولة نموذجا موسعا لمضامينها.، يقول ابو عمرو بن العلاء: ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبياني ولو كان في الدهر الاول ما زاده ذلك الا رفعة/ نفسه: ١٤

ولخص الجاحظ الاصول المفترضة للقصيدة الجاهلية بان ذكر ما كان موجودا من امور تدور في فلك النشأة، يقول:" وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام او حين يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حرب، فتأتيه المعاني إرسالا" البيان والتبيين٢٨/٢ الخانجي

وطاب للمحدثين تسمية هذه بنظرية التوفيق والالهام في نشأة الشعر العربي، تقابلها نظرية التواضع والاصطلاح والتي ترى ان الشعر يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يتعمد ويسلك.

ويرى ان الشعر الجاهلي الذي بين ايدينا حديث العهد لا يتجاوز في ابعد التقديرات ال ١٥٠-٢٠٠ سنة قبل الاسلام" فقال: (أما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه في الأدب العربي امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة في حدود مائة الى مائة وخمسين عاما قبل الإسلام واذا استظهرنا غاية الاستظهار فمائتي عام)./نفسه

في حين مال ابن قتيبة الى تأكيد سمة الارتجال التي ميزت بدايات هذا الشعر، يقول: لم يكن لأوائل الشعراء الا الابيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة وذكر من اوائل الشعراء دويد بن نهد القضاعي واعصر بن سعد بن قيس بن عيلان وغيرهم(الشعر والشعراء١٠٥/١) واكمل في موضع آخر: وانما قصدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن مناف.

وذكروا ان زرارة بن عدس كان أول المقصدين ومهلهل بن ربيعة وما بين موت زرارة وظهور الاسلام ١٥٠ سنة وعدس هو الذي عناه امرؤ القيس في قوله(الممتع /٣٣)

لا حميري وفّى ولا عدس ولا .....الديوان

وربما كان هذا الامر الذي حدا بالجاحظ الى تعيين ظهور الشعر الجاهلي الذي وصل الينا ب ١٥٠ سنة.

والى مهلهل نسبت اوائل القصائد الطوال يقول ابن سلام: وكان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل، قتلته بنو شيبان"الطبقات٣٩/١ ،وأول ما ينسب له من الطوال قوله في رثاء كليب:

أليلتنا بذي حسم أنيري اذا انت انقضيت فلا تحوري

ومن الغريب ان يرى احد الباحثين ان زهير بن جناب الكلبي سبق مهلهل في القصيدة الطويلة حين اسر مهلهل ومطلعها:

تبا لتغلب اذ تساق نساؤهم سوق الاماء الى المواسم عُطّلا

إنا مهلهل ما تطيش رماحنا أيام تنقف في يديك الحنظلا

وبالعودة الى الديوان الذي نقل جامعه القصيدة عن الاغاني نجدها تقع في خمسة ابيات فقط(الديوان/٩٨)رغم ان لزهير قصيدة على حرف القاف تقع في ٢٣ بيتا ذكرت في منتهى الطلب ومطلعها(الديوان ٨٥ نقلا عن منتهى الطلب١٠٢/١)

أمن آل سلمى ذا الخيال المؤرَق وقد يمِقّ الطيف الطروب المشوقِ

وأيا كان الامر فزهير هذا سبق مهلهلا وعاصره وتقاتل معه وأسره وامتدت حياته حتى وقت قريب من الاسلام وله ٢٠٠ غزوة وبالتأكيد كان له فيها اشعار خلدت مآثره

ومن المعمرين الذين سبقوا مهلهلا شعراء كثر نذكر منهم الحارث بن مضاض الجرهمي وهو آخر ملوك جرهم بمكة وذكر السجستاني في المعمرين والوصايا انه بلغ ٤٠٠ عاما وهو قول مبالغ فيه، وما يهمنا ان له اشعارا قدرها الباحثون ب ٧٠ بيتا منها قصيدته الرائية التي بلغت ٢٣ بيتا ومطلعها:(ديوان الشعراء المعمرين اخبارهم واشعارهم في الجاهلية الى نهاية العصر الاموي-٣٣٠)

أموت فقيدا والعيون كثيرة ولكنها بخلا عليّ جوامد

كما ان له واثنتان تقعان في ١٠ ابيات وواحدة تقع في ١٣ بيتا واخرى في ١٢ بيتا.

واذا راجعنا اشعار المعمرين يطالعنا عدد كبير منهم ولهم مجموع شعري ضخم يثبت قدم الشعر الجاهلي وحداثة القصيدة التي وصلت قبل ظهور الاسلام ، ونفهم شيئا فشيئا حين نطلع على تلك الاخبار الكثيرة والاشعار المرافقة لها مغزى قول الجاحظ السابق.

وهناك من ربط نشأة الشعر بالعمل لاسيما حفر الآبار والزراعة والاعمال الاخرى التي كانت سائدة في حياة العرب القدماء ، ولا ننسى ان شبه الجزيرة العربية كانت ارضا خضراء استوطن الناس في اجزائها الصالحة للعيش وزرعوا وربوا الماشية وامتهنوا الصيد، وكان الانشاد في ساعات العمل والراحة امرا مألوفا، الى جانب السمر في الليالي التي كان يجتمع فيها الناس كل ذلك احتاج نوعا من الاغاني التي يكون الكلام المنتظم الايقاع مادتها ، يصاحبه القرع بالدفوف وما سواها من الآلات الموسيقية البدائية،

وتميل ايسر النظريات الى القول بن الشعر قد بدأ بكلام مقفى غير موزون باعتبار القافية اسهل وهو يوازي السجع وربما كان الكهان في المعابد ممن يكثرون استخدام التعاويذ والعبارات التي تجذب الانتباه هم السبب في هذه البداية ومن غير قصد، يضاف الى ذلك امتداد الوظيفة الدينية في العبادات القديمة لتشمل الغناء والرقص المصاحبة للطقوس يعزز الاعتقاد بكون هذه الوسيلة هي التي تسببت في نشوء الاشعار، وتشير المصادر الى الطقوس التي كانت تمارس في المعابد والتي تقوم بها النسوة ، حتى ان الطواف في البيت الحرام كانت تصاحبه طقوس ذات طبيعة ايقاعية كالتصفيق والصفير، يقول عز وجل في كتابه العزيز:" و ما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءا وتصدية"الانفال/٣٥ والمكاء الصفير والتصدية التصفيق، وكل تلك الطقوس ذات طبيعة غنائية، ومن المألوف ان يصاحب الغناء الحروب فكانت النسوة تخرج الى الحروب رفقة المقاتلين "ولا ريب أن العرب كانَ لهم غناء يتغنون به وكان لهم دفوف يضربون بها، وكان غناؤهم بأشعار أهل الجاهلية من ذكر الحروب وندب من قتل فيها، وكانت دفوفهم مثل الغرابيل ليس فيها جلاجل، كما في حديث عائشة عن النَّبيّ، فكان النبي يرخص لهم في أوقات الأفراح كالأعياد والنكاح وقدوم الغياب في الضرب للجواري بالدفوف والتغني مع ذلك بهذه الأشعار وما كان في معناها"(فتح الباري في شرح صحيح البخاري١/٥-٥.

يقول د. ناصر الدين الاسد: والصلة بين الشعر والغناء قديمة تهوي في اعماق القدم حتى تصل الى نشأة الشعر ومبدئه، وتمتد حتى تشمل الشعوب كلها في استقراء جامع، وذكر من مشاهير الجواري المغنيات الجاهليات عددا

كبيرا منهن جرادتا عاد، ام عمرو وقينة ندماني جذيمة ومليكة واسماء وعثمة وقيان بن جدعان وغيرهن،(القيان والغناء في العصر الجاهلي- ١٦١، ٦٩.

وعموما فتكاد اغلب الآراء تجتمع على ربط الشعر العربي في نشأته القديمة بالغناء، والحرب وتلازم الغناء والحرب في الطقس القتالي العربي القديم.

واذا عدنا الى آراء المستشرقين في هذا الجانب تطالعنا ابرز آرائهم في نشأة القصيدة العربية القديمة منها ما ذكره تيودور نيلدكه تعكس هذه المقالة جانبا من وجهات نظر المستشرقين الذين عنوا بالشعر العربي القديم والبحث عن أولياته، وتمثل خلاصة ما كان سائدا في الاوساط العلمية الاوربية حول الشعر العربي قبل الاسلام، وأول هؤلاء نيلدكه الذي ينطلق من المبدأ نفسه الذي انطلق منه مارجليوث في عقد مقارنات بين الشعر العربي قبل الاسلام وبعده لاسيما شعر العصر الاموي، فيقرر اولا القصيدة التي بدأت عند امرؤ القيس ليست قديمة بما يكفي لاعتبارها بداية للشعر العربي كونها تشير ضمنا الى نماذج سابقة نشأت منذ زمن طويل، وأن حياة البدو الرتيبة ليست كافية بالقدر الذي يمكن ان نطمئن معها الى امكانية انتاج ادب بهذا

المستوى، ويقر بأن ما بأيدينا من اشعار لابد ان تختلف اختلافا شديدا عن صورتها القديمة الاصلية ذلك لان انعدام الكتابة الى حد ما ادى الى حدوث الاختلافات على مر العصور، وان تدوين الاشعار العربية تم متأخرا في نهاية العصر الاموي تقريبا ، وأما ما تم نقله شفاها فانه معرض بالتأكيد الى التغيير بسبب التغيرات المحتومة التي تنجم عن حمل هذا الشعر لفترات طويلة، وبسبب سعة العربية وغزارتها يصبح احتمال استبدال بعض الكلمات والعبارات بأخرى بقد تيسير الفهم او عن غير قصد أمرا ممكن الوقوع، فهذا ذو الرمة يشكو افساد الناس رواية قصائده، ويرى ان تخلخل تركيب القصائد العربية كان سببا سقوط بعض الابيات او تغيير ترتيبها ، ، بل أنه يدلل على وجود نصوص مدمجة شكلت القصائد الطويلة بمسألة الذوق الجماعي الذي يركز على المطالع والنسيب فيها ويهمل بقية أجزاء القصيدة جعل من قضية تبديلها أمرا ممكنا طالما سمح الوزن والقافية بذلك ويجعل اختلاف رواة الاشعار دليلا على هذا الزعم على نحو ما رآه السكري من نسبة اربعة ابيات من معلقة أمرئ القيس(٤٨-٥١) الى تأبط شرا، والشعور بوجود ابيات متشابهة مع تغيير ضئيل بينها، ما يؤكد ان لغة القصائد قد اصابها تغيير مستمر ، واما العامل الديني فهو الذي يعكس التغيير المقصود عن وعي لأسباب تتعلق بحرمة ذكر الالهة الوثنية التي محا الاسلام ذكرها .

واما هـ.الفرت في مقالته عن صحة القصائد العربية فيطرح جملة من الملاحظات الواقعية في بحثه عن الاساس الذي قامت عليه عملية جمع القصائد القديمة، ويراهن على دور الدراسات اللغوية في الحفاظ على الشعر ونقله، والصلة الوثيقة بن اللغويين والرواة وكان للهدف العلمي دور كبير في حفظ الاشعار التي لم تكن لتنقل حفظا لولا هذا الدافع ويقر بصحة موضوع الرواية والاخبار التي تروى عن رواة الشاعر والفضل الكبير ايضا ينسب الى الاشعار التي حفظت المآثر التاريخية وكانت سببا في انتقال الاشعار عبر الزمن، ويرى ان الرواة الحقيقيين هم الينبوع الرئيسي الذي استقى منه جامعوا لأشعار وفي مقدمتهم حماد الراوية الذي يرى ان تلقبه ب(الراوية) ابلغ دليل على تمكنه من حرفته واليه كما يرى الاصمعي يرجع الفضل في حفظ اشعار أمرئ القيس والقصائد السبع الطوال ويوافق رأي ابن سلام في شخصية حماد الموثوقة، لكنه يوافق ايضا ما كان يؤخذ عليه من التصرف في كنز العلم الذي يحمله بلا رادع وكان يتعمد التزييف احيانا وما اتهام المفضل له الا لأنه مزج الشعر الحقيقي الذي كان يحمله بالشعر المزيف الذي كان يصنعه. وهو الامر الذي ينطبق على خلف الاحمر الذي كان شاعرا متمكنا ايضا ما سهل عليه امر تزييف الاشعار، ولا يقف الامر عند هذين الرجلين وحسب بل يرى ان العامل الديني المتمثل في عدم رواية الاشعار ذات الطابع الوثني والسعي الى طمسها كان سببا آخر في ضياع الاشعار. ينظر دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي: ١٧، ٤١

المصادر:

١- الخصائص ابن جني
٢- الحيوان الجاحظ
٣- الاصول الفنية للشعر الجاهلي- سعد اسماعيل شلبي

٤- الشعر والشعراء ابن قتيبة
٥- الممتع في صنعة الشعر- عبد الكريم النهشلي
٦- ديوان الشعراء المعمرين اخبارهم واشعارهم في الجاهلية وحتى نهاية العصر الاموي- د. شمس الاسلام أحمد حالو
٧- دراسات في الشعر القديم – احمد محمد عبيد
٨- القيان والغناء في العصر الجاهلي- د. ناصر الدين الاسد
٩- طبقات ابن سلام
١٠- منتهى الطلب من اشعار العرب- محمد بن المبارك
١١- دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي-د. عبد الرحمن بدوي
١٢- ديوان زهير بن جناب الكلبي
١٣- ديوان أمرئ القيس